

مرض أبي بكر ووفاته

قضى أبو بكر على ردة العرب وعلى الثورة التي اندلعت إثر وفاة الرسول بسبب هذه الردة فأشعلت شبه الجزيرة ناراً . ثم إنه فتح العراق وأوشكت جيوشه أن تدخل المدائن عاصمة فارس ، كما تقدّم في فتح الشام وسائر النصر أعلامه فيها إلى دمشق . وبينما تبهر هذه الانتصارات أنظار العالم إذا أبو بكر يقيم الحكم في البلاد العربية المتحدة على أساس الشورى ، وإذا هو يجمع كتاب الله ، فيقرّ له الجميع بأنه أعظم المسلمين أجراً في جمعه بين اللوحين . هذه أعمال ضخمة عظيمة أقرت الدين الحنيف في منزل الوحي ، ومهدت لإقامة الإمبراطورية الإسلامية ولا انتشار هذا الدين الحنيف فيها ، ولقيام الحكم بين أهلها على أساس متين من الإنصاف والعدل . وكان ذلك كله في سنتين وثلاثة أشهر .

ما تم في خلافة
أبي بكر

أليست هذه بعض معجزات التاريخ ؟ ! في سنتين وثلاثة أشهر تطمئن أمم نائرة وتصبح أمة متحدة قوية مرهوبة الكلمة عزيزة الجانب ، حتى لتغزو الإمبراطوريتين العظيمتين اللتين تحكمان العالم وتوجهان حضارته ، لتنهض بعبء الحضارة في العالم قروناً بعد ذلك . هذا أمر لم يسجل التاريخ مثله ، فلا عجب أن يقتضى من أبي بكر مجهوداً تنوء به العصبية أولو القوة . أمّا وقد تخطى أبو بكر الستين يوم ببيع ، فطبيعي أن يهيبض هذا المجهود قوته وأن يعجل به إلى لقاء ربه .

ولعلك بعد الذي تلوته من تفصيل هذه الأعمال الجسام أن تقدّر هذا المجهود وما كان له من أثر . بل لعلك قد رأيت أن هذا المجهود لا يمكن أن ينهض به

رجل إلا إذا أوتى من توفيق الله ومعونته ما لا يؤتاه إلا الصديقون . وهذا ما آمن به أبو بكر ، ولهذا نقش على خاتمه : « نعم القادر الله » .

عجلت عظمة المجهود وتقدم السن وفاة الخليفة الأول ، وإن جرت رواية في تعليل وفاته بأن اليهود دسوا له السم في طعام تناول منه عتاب بن أسيدٍ معه ، كما تناول منه الحارث بن كلدة لقيمات ثم كف ، وأن هذا السم كان بطيء الأثر يقتل بعد عام من تناوله ، ولذلك مات عتاب بمكة في اليوم الذي قبض فيه أبو بكر بالمدينة . وهذه الرواية لم تؤيد بسند جدير بالثقة . ومما يزيد من تهافتها أن أبا بكر لم يكن بينه وبين اليهود في خلافته نزاع ، وأن اليهود جلبوا منذ عهد رسول الله عن المدينة .

الزعم بأنه مات مسموماً

والرواية الراجحة في مرض أبي بكر ووفاته تسند إلى ابنته أم المؤمنين عائشة وإلى ابنه عبد الرحمن . قالوا : كان أول ما بدأ مرض أبي بكر أنه اغتسل في يوم بارد فحم خمسة عشر يوماً لا يخرج إلى الصلاة ؛ وكان يأمر عمر بن الخطاب أن يصلي بالناس .

رواية عائشة في مرضه ووفاته

على أن أبا بكر لم يفتأ في الأسبوعين اللذين قضاها في مرضه إلى وفاته دائم التفكير في شؤون المسلمين ، دائم الحساب لنفسه عما قدم مذ تولى أمرهم . فقد كان قوی الشعور منذ مرض بأن أجله جاء ، وأنه ملاق ربه . وقد كان مغتبطاً لذلك مطمئناً له ، لأنه كان في السن التي اختار فيها رسول الله الرفيق الأعلى ، ولأنه كان يشعر بأنه أدى لله حقه . قيل له يوماً : لو أرسلت إلى الطبيب ! فكان جوابه : قد رأي . قيل : فما قال لك ؟ قال : إني أفعل ما أشاء . يشير إلى أنه وكل الأمر لله ، وأنه سعيد بقضاء الله ، وأن أكبر همه أن يضمه الله إليه .

وأكثر ما شغل به أبو بكر أثناء مرضه إشفاقه من مصير المسلمين بعده . لقد ذكر اختلاف المهاجرين والأنصار بسقيفة بني ساعدة حين مات النبي ، وذكر ما كان يوشك أن يحدث بين القوم لولا أن جمع الله كلمتهم على بيعته . ولئن اختلفوا

تفكير أبي بكر في مصير المسلمين بعده

حين وفاته ليكوننّ اختلافهم أجساماً خطراً . فلم يبق الأمر دائراً بين المهاجرين والأنصار دون سائر العرب ، بل لقد جاهد العرب جميعاً ولا يزالون يجاهدون في العراق والشام ، يواجهون فارس والروم . فإذا قبضوا لم يقف خلفهم في حدود سقيفة بني ساعدة ، بل يتخطاها إلى مكة والطائف ، وقد ينتقل إلى اليمن ، وعند ذلك تعود الثورة تتلظى في بلاد العرب . وهي إن عادت لم يكن مدارها ركناً من أركان الدين ، بل السلطان وولاية الأمر . واختلاف الناس على أمور الدنيا أشد إثارة للشر وإطارة لنار الفتنة . وما أجسم الخطر من ذلك على الإسلام والمسلمين في وقت يواجهون فيه الأسدين فارس والروم ! فكيف يتلافى أبو بكر هذا الخطر ، وكيف يجنب المساميين ما ينشأ عن الفتنة من شرٍّ مستطير ؟

فكر في هذا أثناء مرضه وطال فيه تفكيره . وألهمه الله الرأي وعزم له فلم يتردد . لا سبيل إلى ملافاة ما يشفق منه إلا أن يستخلف من يقوم بالأمر من بعده ، وأن يجمع كلمة المساميين عليه . هذا أمر لم يصنعه رسول الله ؛ فقد قبض ولم يستخلف . لكن ذلك كانت فيه لكمة . وحكمته ألا يظن الناس أن من استخلفه رسول الله قد استمد الأمر على المساميين من عند الله ، فأصبح خليفة الله . وقد أراد الله من فضله أن يجمع كلمة المساميين من بعد علي أبي بكر وأن يهيئ له من التوفيق ما رأيت . فأما إن استخلف أبو بكر فإنما يستخلف برأيه ، و بإرادة المساميين . ولن يكون لخليفته على المساميين إلا ما كان لأبي بكر ، ولن تكون حكومته إلا كما كانت حكومة أبي بكر .

من ذا تراه يستخلف ؟ لقد عجم عيدان من حوله من أولى الرأي جميعاً في عهد النبي ، ولقد عجم عيدانهم مدة خلافته . وهو اليوم أشد ثقة بأن عمر بن الخطاب خير من يخلفه . لكنه إن فرض ذلك على المساميين فقد يثقل أمره عليهم ، وقد يبرمون به . لذلك دعا عبد الرحمن بن عوف وقال له : أخبرني عن عمر بن الخطاب . قال

مشاورته أولى
الرأي في
استخلاف عمر
ابن الخطاب

عبد الرحمن : ما تسألني عن أمر إلا وأنت أعلمنا به . قال أبو بكر : وإن . فقال
عبد الرحمن : يا خليفة رسول الله ، هو والله أفضل من رأيك فيه من رجل ، ولكن
فيه غلظة . قال أبو بكر : ذلك لأنه يراني رقيقاً ، ولو أفضى الأمر إليه لترك كثيراً
مما هو عليه . ويأبأ محمد قد رمّته فرأيتته إذا غضبت على الرجل في الشيء أراني
الرضا عنه ، وإذا لنت له أراني الشدة عليه . وسكت هنيهةً ثم قال : لا تذكر
يأبأ محمد مما قلت لك شيئاً .

ودعا الصديق عثمان بن عفان بعد عبد الرحمن بن عوف ، وقال له : ياأبا عبد الله
أخبرني عن عمر . قال عثمان : أنت أخبر به . فقال : على ذلك ياأبا عبد الله !
قال عثمان : اللهم علمي به أن سريره خير من علانيته ، وأنه ليس فينا مثله . قال
أبو بكر : يرحمك الله ياأبا عبد الله ! والله لو تركته ما عدوتك ! لا تذكر مما
قلت لك ولا مما دعوتك له شيئاً .

ولم يكتف أبو بكر بمشاورة عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان ، بل شاور
كذلك سعيد بن زيد وأسيد بن حضير وغيرهما من المهاجرين والأنصار . وسمع
بعض أصحاب النبي بمشاورات أبي بكر وأنه يريد استخلاف عمر ، فأشفقوا من شدة
ابن الخطاب وغلظته أن يفرق ذلك كلمة المسلمين ، فاجتمع رأيهم على أن يهيبوا
بأبي بكر ليرجع عن عزمه . واستأذنوا فدخلوا عليه ، فقال طلحة بن عبيد الله :
« ما أنت قائل لربك إذا سألك عن استخلافك عمر علينا ، وقد رأيت ما يلقي
الناس منه وأنت معه ، فكيف به إذا خلا بهم بعد لقائك ربك ؟ ! » . هنالك
غضب أبو بكر وصاح بقومه والمرض يهزه : أجلسوني ! فلما أجلسوه وجه الحديث
إلى القوم الذين دخلوا عليه فقال : « أبالله تحوّفوني ! خاب من تزوّد من أمرهم
بظلم ! أقول : اللهم استخلفت على أهلك خيراً أهلك » ، ثم اتجه إلى طلحة فقال له :
« أبلغ عني ما قلت لك من وراءك » .

اعتراض المعترضين
على استخلاف
عمر

واضطجع أبو بكر وقد هدّه هذا الحوار ، فانصرف عنه القوم لم يبق منهم إلا

عبد الرحمن بن عوف ، وقيل بل خرج عبد الرحمن معهم ثم عاد إليه صباح اليوم التالي ، وقال يحييه وقد جلس إلى جانب سريره : « أصبحت والحمد لله بارئاً » . قال أبو بكر : « أترأه ؟ » . قال : نعم ! فسكت أبو بكر وسكت عبد الرحمن هنيهة ثم تحدّث الصديق وكأنما عناء ما حدث بالأمس : « إني وليت أمركم خيركم في نفسي ، فكلكم ورم أنفه من ذلك يريد أن يكون الأمر له دونه » . واستطرد في حديث أحس معه عبد الرحمن بما يغص نفس الخليفة من ألم لحديث القوم ، فقال له : « خفّضْ عليك رحمتك الله فإنّ هذا يهيضك . إنما الناس في أمرك بين رجلين ؛ إمّا رجل رأى ما رأيت فهو معك ، وإمّا رجل خالفك فهو مشير عليك . وصاحبك كما تحب ، ولا نعلمك أردت إلا خيراً ، ولم تزل صالحاً مصلحاً » .

كتاب أبي بكر
باستخلاف عمر

واطمأن أبو بكر إلى استخلاف عمر ، فدعا عثمان بن عفان ، وكان يكتب له فقال له اكتب ، وأملأه : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة في آخر عهده بالدنيا خارجاً منها وعند أول عهده بالآخرة داخلها فيها ، حيث يؤمن الكافر ، ويوقن الفاجر ، ويصدق الكاذب . إني استخلفت عليكم بعدى عمر ابن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا . وإني لم آل الله ورسوله ودينه ونفسي وإياكم خيراً . فإن عدل فذلك ظني به وعلى فيه ، وإن بدّل فكل امرئ ما اكتسب من الإثم . والخير أردت ، ولا أعلم الغيب . وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب يتقلبون . والسلام عليكم ورحمة الله » . ثم ختم الكتاب .

وتذهب بعض الروايات إلى أن أبا بكر أملى عثمان حتى إذا بلغ « إني استخلفت عليكم » أغمى عليه قبل أن يملى اسم عمر بن الخطاب ، فكتب عثمان في غيبوبة أبي بكر « إني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ولم آلكم خيراً » ثم أفاق أبو بكر فقال : اقرأ عليّ ، فقرأ عليه فكبر أبو بكر وقال : « أراك خفت أن يختلف الناس إن افتلتت نفسي في غشيتي ؟ » . قال عثمان « نعم » ، وأقر الصديق ما كتب ، وقال له : « جزاك الله خيراً عن الإسلام وأهله ! »

خشى أبو بكر مع ذلك كله أن يختلف الناس من بعده ، فأشرف من حجرة بداره على الناس بالمسجد وامرأته أسماء بنت عميس ممسكته موشومة اليدين ، وقال يخاطب من بالمسجد جميعاً : « أترضون بمن أستخلف عليكم ؟ فإني والله ما ألت من جهد الرأي ولا وليت ذا قرابة . وإني قد استخلفت عمر بن الخطاب ، فاسمعوا له وأطيعوا » . قالوا : « سمعنا وأطعنا » .

وفي بعض الروايات أن عثمان خرج إلى الناس بعد أن أملى عليه أبو بكر وصيته وختمها ، فأبرز لهم الكتاب مختوماً وقال لهم : أتبايعون لمن في هذا الكتاب ؟ قالوا : نعم ، وبايعوا ابن الخطاب . فلما بايع الناس دعا أبو بكر عمر فأوصاه بما أوصاه به ، على تعبير ابن سعد في الطبقات (١) .

وصية أبي بكر
لعمر بن الخطاب

(١) أوردت بعض الروايات نص هذه الوصية ، وهو ما يأتي : « إني مستخلفك من بعدى وموصيك بتقوى الله . إن لله عملاً بالليل لا يقبله بالنهار ، وعملاً بالنهار لا يقبله بالليل . وإنه لا تقبل نافلة حتى تؤدي الفريضة . فإما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة أتباعهم الحق في الدنيا وثقله عليهم . وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يكون ثقيلاً . وإنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة أتباعهم الباطل وخفته عليهم . وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يكون خفيفاً . إن الله ذكر أهل الجنة فذكرهم بأحسن أعمالهم وتجاوز عن سيئاتهم ، فإذا ذكرتهم قلت إني أخاف ألا أكون من هؤلاء . وذكروا أهل النار فذكرهم بأسوأ أعمالهم ولم يذكر حسناتهم ، فإذا ذكرتهم قلت إني لأرجو ألا أكون من هؤلاء . وذكروا آية الرحمة مع آية العذاب ليكون العبد راغباً راهباً ، لا يتمنى على الله غير الحق ولا يلتقي يده إلى التهلكة . فإذا حفظت وصيتي فلا يكن غائب أحب إليك من الموت وهو آتيك ، وإن ضيعت وصيتي لم يكن غائب أبغض إليك من الموت ولست بمعجز الله » . وقيل إن عمر لما خرج من عند أبي بكر رفع الصديق يديه وقال : « اللهم إني لم أرد بذلك إلا صلاحهم وخفت عليهم الفتنة فعملت فيهم بما أنت به أعلم ، واجتهدت لهم رأياً فوليت عليهم خيراً وأقوامهم عليهم وأحرصهم على ما أُرشدهم . وقد حضرني من أمرك ما حضر فأخلفني فيهم ، فهم عبادك ونواصيهم بيدك . أصلح اللهم واليهم ، واجعله من خلفائك الراشدين ، وأصلح له رعيته ! » .

وليس يسيراً علينا أن تثبت من صحة الرواية في الوصية ولا في الدعاء . بل لعل لمن شاء أن يرتاب في نسبة بعض ما انطويا عليه إلى الصديق رضى الله عنه . وحسبنا أن تذكر عبارته الأخيرة في الوصية : « اجعله من خلفائك الراشدين » وتذكر إلى جانبها إنكاره على من دعاه « خليفة الله » وقوله : ولكني خليفة رسول الله ، لتبين وجه الحجة لمن يرتاب . فإذا أضفت إلى ذلك ما في تاريخ أبي بكر من اختلاف الروايات ومن ضعفها كان حقاً علينا أن نتلقى ما يروى عنه في شيء كثير من الحذر .

وإذ فرغ أبو بكر من استخلاف عمر واطمأنت نفسه على مصير المسلمين من بعده جعل يحاسب نفسه على ما قدّم . روى عن عبد الرحمن بن عوف أنه كان يهوّن على أبي بكر علته وما يدور بخاطره من أمر المسلمين ، ويذكر له أنه لا يأسى على شيء من الدنيا ، فقال أبو بكر : « أجَلْ إني لا آسى على شيء من الدنيا إلا على ثلاث فعلتهن ووددت أنى تركتهن ، وثلاث تركتهن ووددت أنى فعلتهن ، وثلاث ووددت أنى سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهن . فأما الثلاث اللاتي ووددت أنى تركتهن ، فوددت أنى لم أكشف بيت فاطمة عن شيء وإن كانوا قد غلقوه على الحرب^(١) . ووددت أنى لم أكن حرقت الفجاءة السلمي وأنى كنت قتلته سرّياً^(٢) أو خليته نجيحاً . ووددت أنى يوم سقيفة بني ساعدة كنت قذفت الأمر في عنق أحد الرجلين — يريد عمر وأبا عبيدة — فكان أحدهما أميراً وكنت وزيراً . وأما اللاتي تركتهن ، فوددت أنى يوم أتيت بالأشعث بن قيس أسيراً كنت ضربت عنقه فإنه تخيل إلى أنه لا يرى شرّاً إلا أعان عليه . ووددت أنى حين سيرت خالد بن الوليد إلى أهل الردّة كنت أقت بذى القصة ، فإن ظفر المسلمون ظفروا ، وإن هزموا كنت بصدد لقاء أو مدد . ووددت أنى كنت إذ وجهت خالد بن الوليد إلى الشام كنت وجهت عمر بن الخطاب إلى العراق ، فكنت قد بسطت يديّ كليهما في سبيل الله — ومدّ يديه . ووددت أنى كنت سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن هذا الأمر فلا ينازعه أحد . ووددت أنى كنت سألته هل للأنصار في هذا الأمر نصيب ؟ ووددت أنى كنت سألته عن ميراث ابنة الأخ والعمة فإن في نفسى منهما شيئاً » .

لم يكن ذلك كل ما اختلجت به نفس أبي بكر وما دار بخاطره أثناء مرضه . فأنت تذكر أنه قد ترك التجارة ليفرغ لما يصلح شؤون المسلمين ، وأن أصحابه جعلوا له

(١) لا يذكر الذين يتكرون تخلف على عن البيعة هذه العبارة . ولا يذكر بعض الرواة ما يقال من أن أبا بكر ود أن يسأل رسول الله في أمور منها هل للأنصار حق في ولاية الأمر . (٢) السريح : السهل ، أو العجلة .

الصديق يحاسب نفسه على ما فعل وما ترك وما نسى أن يسأل عنه رسول الله

نزول أبي بكر
للمسلمين عما أخذ
من بيت مال
المسلمين

من بيت المال ما يصلح به نفسه وعياله . فلما رأى أنه مشفٍ على الموت لم تطب نفسه بما أخذ من بيت المال ، بل قال : « ردُّوا ما عندنا من مال المسلمين فإنِّي لم أصب من هذا المال شيئاً ، وإنَّ أرضي التي بمكان كذا وكذا للمسلمين بما أصبت من أموالهم » . واستخلص عمر ثمن هذه الأرض وردَّه على بيت المال تنفيذاً لأمر أبي بكر ، وجعل يقول : « يرحم الله أبا بكر ! لقد أحبَّ ألا يدع لأحد بعده مقالا ! » .

وفي رواية أن عمر قال هذه العبارة لأهل أبي بكر حين أبلغوه مشيئته في هذا الأمر ثم أردفها بقوله : « وأنا والى الأمر من بعده ، وقد رددتها عليكم » .

وتجربى رواية ثالثة بأن أبا بكر تُوِّفَّ وليس عنده دينار ولا درهم ، وإنما ترك عبداً كان يحمل صبيانه ، وناضحاً يسقي^(١) بسناناً له ، وقطيفة قيمتها خمسة دراهم ، وقد أمر بحملها إلى عمر بعد أن يُفَرَّغ منه . فلما حملت إلى عمر بكى وقال : « لقد أتعب أبو بكر من بعده تعباً شديداً ! » .

ولسنا نشق بصحة هذه الرواية وإن كانت البيئات قاعمة على أن أبا بكر إن كان قد ترك شيئاً بعده فإنما ترك غير كثير . فقد أوصى بخمس ماله وقال : « آخذ من مالي ما أخذ الله من فيء المسلمين » ، أو قال : « لي من مالي ما رضي ربي من الغنيمة » . ولعل بعضهم ودَّ لو أن أبا بكر أوصى بأكثر من الخمس ، فأجابه : « لأنَّ أوصي بالخمسة أحبُّ إليَّ من أن أوصي بالربع ، ولأنَّ أوصي بالربع أحبُّ إليَّ من أن أوصي بالثلث ، ومنَّ أوصي بالثلث فلم يترك شيئاً » . فلو أن أبا بكر لم تكن له تركة وصح ما روي عن عائشة أنها قالت : « ما ترك أبو بكر ديناراً ولا درهماً ضرب الله سيكته » ، لما أوصى بالخمسة ؛ ولا بما دون الخمس . فإنما يوصى من يملك شيئاً وإن قلَّ .

(١) الناضح : البعير أو الثور أو الحمار الذي يستقى عليه الماء . وفي بعض الروايات « لقحة » بدل « ناضح » . واللقحة : الناقة القريبة العهد بالتاج .

أبو بكر يسترد ما وهبه لعائشة ابنته ليكون قسمة بين ولديه وبنتيه

وكان أبو بكر قد وهب لعائشة أرضاً بالعالية ، كان النبيّ أعطاه إياها ، فأصلحها وغرس فيها ثم جعلها لابنته أمّ المؤمنين . فلما حُضِر وعائشة تمرّضه جلس فنتشده ثم قال : « يا بَنِيَّةُ ، إنَّ أحبَّ الناسِ غِنَىَّ إلىَّ بعدى أنت ، وإنَّ أعزَّ الناسِ فقراً علىَّ بعدى أنت . وإني كنت نحلّتك أرضي التي تعامين ، وأنا أحبُّ أن تردّيها علىَّ فيكون ذلك قسمةً بين ولدي على كتاب الله ؛ فإنما هو مال الوارث ، وهما أخواك وأختاك » . ولم يكن لعائشة غير أخت واحدة ، فسألت أباهما في ذلك فقال : « ذو بطنٍ ابنةٍ خارجةٍ فإني أظنّها جارية » .

فكر أبو بكر أثناء مرضه فيمن يخلفه على المسلمين ، وفكر في ردّ المال الذي جعلوه له حين خلافته ، وفكر فيما يُوصي به من تركته ، وفكر فيما كان نحلّه ابنته عائشة ليرده على ورثته . فكر في هذا كله شديد الحرص على أن يدع هذه الدنيا بريئاً ، وعلى أن يلقى الله وقد ألقى عن نفسه كل ما يخشى أن يؤاخذ به الله به . فلما اطمأن إلى ذلك بدأ يفكر في الموت وفي الأهبة له ، فأوصى أن يكفن في ثوبين له كان يلبسهما وقال : « كفنوني فيهما فإن الحيّ أحوج للجديد من الميت » (١) . وأوصى أن تغسله امرأته أسماء بنت عميس ، فإن لم تستطع استعانت بعبد الرحمن ابنه . وإنه لفي شغل بهذه الأمور إذ أقبل المثنى من العراق فأذن الصديق له ، فلما طلب منه أن يُمدّه بمن عاد إلى الإسلام من أهل الردّة أوصى عمر أن يفعل وألا يُشغَلَ بوفاته عن أمور المسلمين .

وصية أبي بكر لكفنه

(١) كثرت الروايات في وصية أبي بكر بتكفينه ، وكلها مع ذلك منسوبة لعائشة . فمنها أنه كان عليه ثوب فقال : إذا أنا مت فاعسلوا ثوبي هذا وضموا إليه ثوبين جديدين وكفنوني في ثلاثة أثواب . قالت عائشة : ألا نجعلها جديداً كلها ؟ فقال : لا ! إنما هو للمهلة ، الحيّ أحق بالجديد من الميت . ومنها أن أبا بكر سأل عائشة في كم كفن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت : في ثلاثة أثواب . قال اغسلوا ثوبي هذين وابتاعوا لي ثوباً آخر . قالت : يا أبت لنا موسرون . قال : أي بنية ! الحيّ أحق بالجديد من الميت ، إنما هي للمهلة والصديد . وثم روايات أخرى أوردها ابن سعد في الطبقات . (المهلة ، مثلثة الميم : القميص والصديد) .

وبدا أبو بكر يعالج سكرات الموت وعائشة ابنته إلى جانبه ، فلما رآته كذلك
تمثلت بهذا البيت من قول حاتم :

لعمرك ما يُعنى الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدرُ
فنظر الصديق إليها كالغضبان ثم قال : ليس كذلك يا أمّ المؤمنين ، ولكن
« وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ » .

ولما ثقل جلست عند رأسه وتمثلت :

وكلّ ذى إبلٍ موروثٌ وكلّ ذى سلبٍ مسلوبُ
وكل ذى غيبةٍ يؤوبُ وغائبُ الموتِ لا يؤوبُ

وقيل إن أبا بكر هو الذى تمثل بهذين البيتين ، وإن آخر ما تكلم به :
« رَبِّ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ » .

رب توفنى مسلماً
وألحقنى بالصالحين

وقبض أبو بكر يوم الاثنين لإحدى وعشرين ليلة خلت من شهر جمادى الآخرة
للسنة الثالثة عشرة للهجرة (٢٢ أغسطس سنة ٦٣٤) ، وهو فى الثالثة والستين
من عمره . توفى مساء بعد ما غابت الشمس ، ودُفن ليلاً ، وتولت زوجته أسماء بنت
عميس غسله وعاونها ابنه عبد الرحمن إذ كان يصبّ الماء . ثم إنه حمل على السرير
الذى حمل عليه رسول الله إلى المسجد ليدفن كما أوصى إلى جواره صلى الله عليه
وسلم فى بيت عائشة .

ووضع الجثمان فى المسجد بين القبر والمنبر ، وتولّى عمر صلاة الجنازة فكبر أربعاً ،
ثم نقل الجثمان إلى القبر ودخل معه عمر وعثمان وطلحة وعبد الرحمن بن أبى بكر .
وأراد عبد الله بن أبى بكر أن يدخل ، فقال له عمر : « كُفيت » . ودُفن أبو بكر
فى حفرة حفرت له إلى جنب النبى ، وجعل رأسه إلى كتف رسول الله ، وألصق
اللحد باللحد . فلما أهالوا عليه التراب خرجوا وقد ودّعوا خليل رسول الله وصفيّه

بعد أن جمع بينهما الموت ، فودّعوا أقرب الناس إلى قلب رسول الله وأحبهم إليه وأثرهم عنده ، وأشدّهم إيماناً بالله ورسوله .

وقد ارتجبت المدينة لوفاة أبي بكر ، وتولّى الناس دهش كدهشهم يوم قبض رسول الله ، وأقبل على بن أبي طالب مسرعاً باكياً حتى وقف بالباب فقال :

تأين علي بن
أبي طالب أبا بكر

« رحمك الله يا أبا بكر ! كنت والله أول القوم إسلاماً ، وأخلصهم إيماناً ، وأشدّهم يقيناً ، وأعظمهم غنى ، وأحفظهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحدبهم على الإسلام ، وأحماهم عن أهله ، وأنسبهم برسول الله خلقاً وفضلاً وهدياً وسمتاً ، فجزاك الله عن الإسلام وعن رسول الله وعن المسلمين خيراً . صدّقت رسول الله حين كذّبه الناس ، ووأسينته حين بخلوا ، وقتت معه حين قعدوا ، وسمّك الله في كتابه صديقاً فقال : « وَالَّذِي جَاءَ بِالصَّدَقِ وَصَدَّقَ بِهِ » ، يريد محمداً ويريدك . كنت والله للإسلام حصناً ، ولكافرين ناكباً . لم تضلّ حجتك ، ولم تضعف بصيرتك ، ولم تجبن نفسك ، كالجبل لا تحركه العواصف ، ولا تزيله القواصف . كنت كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ضعيفاً في بدنك ، قوياً في دينك ، متواضعاً في نفسك ، عظيماً عند الله ، جليلاً في الأرض ، كبيراً عند المؤمنين . لم يكن لأحد عندك مطمع ولا هوى ؛ فالضعيف عندك قوى ، والقوى عندك ضعيف ، حتى تأخذ الحق من القوى ، وتأخذ للضعيف . فلا حرّمنا الله أجرك ، ولا أضلنا بعدك ! » .

تأين عائشة أم
المؤمنين أباها

وأبنته ابنته عائشة أم المؤمنين فقالت : « نضر الله يا أبت وجهك ، وشكر لك صالح سعيك ؛ فقد كنت للعالم مدلاً بإدبارك عنها ، وللآخرة معزاً بإقبالك عليها . ولئن كان أعظم المصائب بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم رزءك ، وأكبر الأحداث بعده فقتك ، إن كتاب الله عز وجلّ كيعدنا بالصبر عنك حسن العوض . وأنا منتجزة من الله موعدة فيك بالصبر عنك ، ومستعينة بكثرة الاستغفار لك . فسلم الله عليك ، توديع غير قالية لحياتك ، ولا زارية على القضاء فيك » .

وكان عمر بن الخطاب أوجز في القول ، وكانما عقد الرزء لسانه . قال حين دخل على أبي بكر بعد موته : « يا خليفة رسول الله ! لقد كلفت القوم بعدك تبعاً ووليتهم نصباً . فهيات من شق غبارك ، فكيف اللاحق بك » .

وتداولت أنباء الوفاة حواضر العرب وبواديها ، فهزت كل نفس وأسبلت الدمع من كل عين ؛ واضطرب أهل مكة لسماعها ، وبلغ اضطرابهم سمع أبي قحافة فسأل : ما هذا ؟ قيل : توفي ابنك . قال : رزء جليل ! من قام بالأمر بعده ؟ قالوا : عمر . فقال : صاحبه ، ولم يزد . وأرادوا أن يردوا عليه حقه مما ترك أبو بكر فأبى وقال : بنوه أحق به . وما كان لهذا الشيخ الفاني بعد هذا الرزء الجسم إلا أن يلحق ابنه في جوار الله ، فتوفي بعد ستة أشهر من وفاته .

أفتدل هذه الكلمات الوجيزة التي نطق بها أبو قحافة على أنه كان أجمل العرب صبراً لقضاء الله في خليفة رسول الله ؟ ! أم إن جزعه لوفاة ابنه هو الذي أسكنه ، كما أنه هو الذي عجل به إلى لقاء ربه ؟ ! ما نحسب أباً يتجأ للمصاب في ابنه إلا تجملاً ، وإن تقدمت به السن وأدركه الهرم . لذلك كان حزن أبي قحافة غير حزن سائر العرب . لقد حزن العرب إشفاقاً مما يحبئه الغيب ، بعد أن غيبوا في التراب رجلاً كان البر بهم ، والعطف عليهم ، وإنكار الذات في سيلهم ، وكان إلى ذلك موقفاً كل التوفيق في ولاية أمرهم وسياسة دولتهم . أما أبو قحافة فحزن لأن أعز أجزاء نفسه عليه ذهب ، فأنهد ركنه وتداعت حياته .

وفدح الخطب أم المؤمنين عائشة ، فأقامت النوح على أبيها وشاركتها أخته أم فروة وزوجته أسماء بنت عميس وحبشية ابنة خارجة ومن اجتمع إليهن من نساء المدينة . فلما بلغ عمر ما يصنعن جاء إلى بيت عائشة ونهاهن عن النوح فلم ينتهين . فقال لهشام بن الوليد : ادخل عليهن فأخرج إلي أم فروة ابنة أبي قحافة أخت أبي بكر . وسمعت عائشة قول عمر فقالت لهشام : إني أخرج عليك بيتي . قال عمر :

موقف عمر من
نوح آل أبي بكر
عليه

أَدْخُلُ فَقَدْ أَذِنْتُ لَكَ . ودخل هشام فأخرج أمّ فروة إلى عمر ، فعلاها بالدرّة فضربها ضربات وهو يقول : تُرِدُنْ أَنْ يَعَذِّبَ أَبُو بَكْرٍ بِيكَاثُكُنْ ! إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الميت يعذب ببكاء أهله عليه » . وتفرق النوايح حين رأين ما أصاب أمّ فروة ، ولم تستطع عائشة أن تحول بين عمر وما أراد .

ولعل عمر قد أزعجه هذا النوح لشدة جزعه على أبي بكر . فليس أوجع لنفوسنا من نوح النسوة على ميت نحبّه ويحز الألم في قلوبنا لفراقه . وحقّ لعمر ولكل مسلم أن يشتد يومئذ جزعه . بل إننا اليوم لنشاركهم في حزنهم وفيما كان من مخاوفهم ، مع علمنا بما أفاء الله على المسلمين في عهد عمر من نصر ، وما أراد من فضله أن يتوجّج به سياسة أبي بكر من نجاح وفوز . فلم يمر الإسلام منذ هاجر النبيّ إلى المدينة بمثل ما مر به في عهد الصديق من محنة ، ولم تسمّ نفوس المسلمين فوق البأساء والضراء وحين البأس سموها بفضل إيمانه وعزمه . لقد امتحن الله المؤمنين في خلافته فأحسنوا البلاء ، واجتاز الدين الناشئ بفضل إيمان الخليفة وعزمه مناطق الأعراف ، صلباً قوياً الحياة ، كفيلاً بأن يُظَلَّ العالم بلواء التقدّم والحريّة ، وأن يرفعه إلى حضارة سامية هي وحدها الجديرة بالإنسانية . وقد كانت روح أبي بكر من مصادر هذه القوة . أفكان الإسلام لا يزال في حاجة إلى فيضها ؟ أم إنه قد تخطى خلال هاتين السنتين وثلاثة الأشهر مناطق الخطر ، فآن له أن يمتد في طمأنينة وأمن ، وأن يمد إلى الإنسانية المضطربة يوم ذاك يد النجدة ليقرّ بينها الإخاء والسلام !!

لعلنا لا ندري ماذا كان يحدث لو لم يستخلف أبو بكر عمر ، ولو لم يخرج على ما أخذ به نفسه ، ولم يصنع ما لم يصنعه رسول الله . فقد كان هذا العمل الأخير في حياة الصديق حلقة قوية في السلسلة التي رفعت الإسلام مكاناً علياً ، والتي أراد الله أن يتمّ بها كلمته وينصر دينه . ترى لو أن أبا بكر اختار عثمان أو غير عثمان أفكان الإسلام ينتشر ما انتشر في عهد عمر ، ثم يزداد في عهد خليفته انتشاره ؟ أم إن اختيار عمر كان توفيقاً من الله للصديق فكان الفاروق بطل الموقف ورجل الساعة ؟!

أثر أبي بكر
في حياة الاسلام

لا غناء اليوم في أن نعرض لهذا الأمر بحكم . لكن الذي لا مزية فيه أن
أبا بكر وعمر كانا يتفقان في جوهر النفس على تباين مظاهرها ليناً وشدة . صَفَى
الإيمان بالله نفسيهما فتنزهتا وطهرتا وسمتا فوق خباث الدنيا وتجرّدتا لله ، فكانتا
العدل والرحمة والإيثار والحرص على أن ينتصر الحق وتعلو كلمة الله . بذلك كان
استخلاف عمر عملاً صالحاً أراد الله به أن يُعزَّ دينه ، وأن يُقرَّ به في الأرض كلمة
الحق ، وأن يعلى به منار البرِّ والتقوى .

رحم الله أبا بكر ورضى عنه وألحقه بالصالحين !